

الأعداد المعنوية للحرب الصليبية المضادة

للدكتور صلاح الدين البهيري

مدرس الحضارة الإسلامية بكلية الآثار - جامعة القاهرة

يعتبر العصر الأيوبي عصرًا مجددًا ومبتكرًا في ميدان الحضارة الإنسانية بوجه عام وفي ميدان النظم العسكرية بوجه خاص ، ولا غرابة في ذلك لأنه عصر عرف ما يمكن تسميته بالتاريخ المتحرك نظراً للأحداث التي تميزه بطابع خاص . فهو عصر انسم بالروح الحربية التي نمت وتطورت بفعل الحروب الصليبية ، تلك الحروب التي تطلبت من المسلمين جهاداً ضدها فأنارت من قبل هؤلاء المسلمين حركة الجهاد التي لم تكن في واقع الأمر سوى رد فعل على الهجوم الصليبي في صورة حروب صليبية مضادة . لذلك سرعان ما يلاحظ الباحث في المصادر التي تتحدث عن العصر الأيوبي أن الطابع العسكري يغلب على النظام الأيوبي لأن ظروف هذا العصر الحربي شددت كل أجهزة الدولة الأيوبية ووجهتها نحو خدمة الحرب المضادة للصليبيين حتى غلبت المصطلحات العسكرية على النظم الأيوبية بل وصيغتها بصيغتها ، فأرست بذلك قواعد راسخة لنظم عسكرية استمرت حتى بعد الأيوبيين أنفسهم (١) . ولقد أثبتت الأبحاث التي قننا بها عن النظم الأيوبية في مصر زمن الأيوبيين (٢) أن الدولة الأيوبية كانت قد أعدت جيشاً حديثاً على عصره ، مبتكر تنظيمه من خلال ظروف الحرب ومتطلباتها المتجددة . فأوضحت جلياً أن متجددات

الحرب والحرب المضادة في العصر الأيوبي دفعت العقل البشري المسلم إلى أعمال فكره وقدح ذهنه من أجل إيجاد الحلول المناسبة لكل نفرة قد تظهر أثناء الحرب سواء من ناحية تنظيم الجيش المسلم واستراتيجيته خاصة أو من ناحية النظم العسكرية عامة .

ونتيجة لذلك يعتبر العصر الأيوبي من وجهة نظرنا عصراً مجدداً ومبتكراً وإدراك ذلك من السهولة بمكان إذا علمنا أن الحرب واحتياجاتها تدفع الإنسان الذي يقوم بها إلى أن يحسن استخدام القدرة الخلاقة التي أودعها الله سبحانه وتعالى فيه من أجل إيجاد الحلول الأفضل للمشاكل التي تظهر وتتجدد بفعل ظروف الحرب نفسها . ومن أجل ذلك نعتقد اعتقاداً راسخاً أن سياسة الحرب المضادة التي اضطر الأيوبيون إلى اتباعها بسبب وجود الفرنج على أراضيهم القومية دفعتهم إلى خلق النظم العسكرية التي تكفل لهم الوسائل الفعالة لمواجهة متطلبات ذلك العصر الحربي ، وكان لا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بإرساء قواعد قوية لهذه النظم من أجل تطبيق سياسة حرب مدروسة دراسة ميدانية عميقة قبل اتخاذ قرار الحرب أو السلم . وبذلك ليس غريباً أن نقول بأن النظم الأيوبية تعتبر في نظرنا نظماً أيوية خالصة . صحيح أن النظام الأيوبي اعتمد في أوائل عهده على ما وجدته من نظم كانت تطبق من قبل ذلك العهد ، ولكن ظروف عصرهم المتغيرة سرعان ما ساعدت على ميلاد نظم جديدة موسومة ببصمات الأيوبيين .

ولعل من الموضوعات الهامة التي ننوي معالجتها تباعاً على صفحات هذه المجلة إن شاء الله تعالى - خصوصاً في هذه الأيام التي تمر بها المنطقة العربية - هو موضوع نظام لاعداد المعنوي الذي اتبعه الأيوبيون تجاه الجيش والشعب على السواء . ففي الحق لقد أرسى الأيوبيون قواعد هذا النظام بدافع من حتمية الظروف التاريخية التي فرضتها الحروب الصليبية ، تلك

الحروب التي تطلبت جهاداً ضدها من قبل المسلمين فكان مانسميه مجازاً
« بالحروب الصليبية المضادة » . إذ أن من البديهي أن لكل فعل رد فعل ،
فالقوة لا يصدها غير القوة والحرب لا تردعها إلا الحرب المضادة التي ينبغي
أن تكون متفوقة على تلك الحرب .

ومن المسلم به أن المتجددات التي كانت تحدث بفعل الحروب الصليبية
كانت تدفع العقل البشري الأيوبي - مثلها ذكرنا آنفاً - إلى اكتشاف
ذاته الخلاقة التي ساعدته على ابتكار جيش هو ، كما قلنا أيضاً ، حديث على
عصره ، مبتكر تنظيمه من خلال ظروف الحرب ومتطلباتها ، بحيث أصبح
فعلاً قوة ردع عسكرية فعالة ، هدفها ردع العدوان الصليبي وصدّه عن
الأراضي العربية .

ولكن الأيوبيين أدركوا منذ الوهلة الأولى أنه كي يكون لقوة الردع
العسكرية التي أنشأوها ونظموها في صورة جيش قوى وحديث ، فاعليتها
ضد العدو ، أدركوا أنه ينبغي عليهم ألا يغفلوا عن تنظيم قوة أخرى لا تقل
ضراوة عن هذه القوة العسكرية ألا وهي قوة الردع الشعبية التي بدونها
لا يستطيع أى جيش على الإطلاق في كل زمان ومكان أن يحقق الغرض
من تكوينه وهو الدفاع عن الأراضي والمكاسب القومية .

وفي الحق لقد علمنا التاريخ على مر عصوره أن جيشاً منفصلاً انفصلاً
معنوياً عن شعبه وبمعزل عنه لا يمكن أن تتوفر له عناصر تكوينه الأساسية
ولا عجب في ذلك فالشعب كان دائماً وسيظل مصدر قوة الجيش وركيزته التي
تعكس مدى جدية تنظيمه .

من أجل ذلك أدركت الدولة الأيوبية حتمية إشراك كل قوى الشعب
في صد العدوان وذلك عن طريق تأسيس قوة الردع الشعبية ، وبدأ لها جلياً
أن هذا إن يتحقق إلا إذا وجدت فكرة صد العدو مكاناً ، رموقاً في قلب

كل مواطن خصوصاً في عصر تميز بروح الحروب الصليبية التي نشبت فعلاً في بعث روح الجهاد لدى المسلمين تلك الروح التي كانت بمثابة رد فعل للحروب الصليبية .

وإذا كانت الحروب الصليبية مرتبطة بفكرة الحرب المقدسة التي استمدت دواماً قوتها من إيمان شعوب الغرب المسيحي بحقها في الأراضي المقدسة بفلسطين ، فقد كان من الضروري بحماية الفكرة بنفس الفكرة فلا يفل الحديد إلا الحديد ، أى أنه بات محتماً أن ترتبط أيضاً فكرة الجهاد أو الحروب الصليبية المضادة ، بنفس الفكرة وتستمد قوتها من إيمان الشعوب الإسلامية بحتمية تخلص أراضيها المقدسة من براثن الاستعمار الصليبي ، ولا غرابة في ذلك فقد كانت القضية في مظهرها واحدة بالنسبة للفريقين ، ألا وهي قضية تحرير الأراضي المقدسة من سيطرة الكفار ، !! وكان ذلك هو الدافع - ولو أنه ليس الوحيد - الذي دفع الصليبيين إلى القيام بحملاتهم ، كما كان أيضاً المحرك الذي ساعد على بعث روح وفكرة الجهاد بين المسلمين . وعلى ذلك يمكن القول بأن الصليبيين والأيوبيين قد تحاربوا من أجل تحقيق هدف واحد . . . هدف ذو صفة مقدسة وقومية في ذات الوقت . ولذلك نعتقد أن الأساليب التي اتبعت في الغرب المسيحي من أجل تعبئة الرأي العام للانخراط في الحملات الصليبية تشابهت في بعض الأحيان مع تلك التي سلكها الشرق الاسلامي بهدف تهيئة المسلمين للانضمام بين صفوف جيوش الجهاد ضد الصليبيين أو حتى لمساندة هذه الجيوش بالطرق المدنية الأخرى . وليس في هذا ما يدعو على الدهشة لأن القضية - مثلاً ذكرنا - كانت في مظهرها واحدة بالنسبة للفريقين ألا وهي قضية تحرير الأراضي المقدسة من سيطرة الكفار ، فالصليبيون كانوا ينادون - ولو في الظاهر - بأن المسلمين ليس لهم حق في بسط سلطانهم على الأراضي المقدسة بحجة أنهم كفار ، ولو أن

أهدافاً أخرى كانت تعتمل في باطن الصليبيين سوف تشير إليها في حينها ؛
والمسلمون بدورهم ينظرون إلى الوجود الصليبي على أراضيهم المقدسة والقومية
في ذات الوقت على أنه دنس لا بد من تطهير هامنه بل وأدركوا أن هذا الوجود
الصليبي ما هو إلا عمل من أعمال سلب الأرض ونهبها من أصحابها الشرعيين
باسم الصليب ، وكان ينبغى عليهم أن يبدلوا كل جهد من أجل استعادة
الحقوق المسلوقة وطرد المحتل من أراضيهم القومية . وفي الحق نجد المؤرخ
السويسري پول روسيه Poul Sousset لم يخطئ حينما قال في كتابه عن
الحروب الصليبية أن هذه الحروب يمكن اعتبارها حلقة في سلسلة حلقات
تاريخ استعمار البشر لبعضهم البعض .

وعلى ذلك فقد كان بسبب ما بدا لنا من مظهر واحد لقضية الصراع بين
الصليبيين والمسلمين حول الأراضي المقدسة ، أن رأينا لزماً علينا تكوين
فكرة عامة عن الوسائل التي اتبعتها الغرييون من أجل دفع طبقات المسيحيين
على اختلافها في أوروبا إلى القيام بالحملة الصليبية الأولى ، وذلك قبل معالجتنا
لوسائل التي اتبعتها المسلمون بغرض حشد طاقات شعوبهم لمجابهة هذا
الهجوم المسيحي بهجوم مضاد إسلامي .

إن من يدرس هذا الموضوع لا يمكنه - أكاديمياً إنكار الدور الفعال
والمؤثر الذي لعبته البابوية والكنيسة في هذا المضمار . فقد عرفت - في
الواقع - البابوية والكنيسة كيف تستغل كل الامكانيات المتاحة تحت تصرفها
من أجل دفع المسيحيين إلى المساهمة بشرياً ومادياً في هذا المشروع الكبير
الذي كانت ترمع القيام به وهو الحرب الصليبية الأولى . ولكننا نعلم أن
حادثة تاريخية كبرى كانت قد حدثت قبل دعوة البابوية لهذه الحرب الصليبية
الأولى بأكثر من عشرين عاماً ، ونقصد بهذه الحادثة موقعة متركوت التي

انهزم فيها الامبراطور البيزنطى رومانوس ديوجين Romain IV Dio8ène فى يوم ١٩ أغسطس سنة ١٠٧١ أمام جيوش الأتراك السلاجقة فى آسيا الصغرى ، تلك المعركة التى سحقت فيها قوات الامبراطورية البيزنطية ووقع الامبراطور البيزنطى نفسه فى الأسر . وتم للسلاجقة بقيادة سليمان بن قطلمش الاستيلاء على آسيا الصغرى^(٤) مما دعا الامبراطور البيزنطى إلى ارسال طلبات النجدة والاستغاثة إلى الغرب المسيحى لأن خطر الزحف الاسلامى السلجوقى أصبح يهدد الامبراطورية البيزنطية بل وأوروبا الغربية كذلك^(٥) .
ففى الحق لقد كانت هذه الواقعة كارثة عظمى منبت بها الامبراطورية البيزنطية بل واعتبرها مؤرخو التاريخ البيزنطى نقطة تحول خطيرة فى هذا التاريخ^(٦) .
بل ويعتبر المؤرخ H. St. L. B. Moss يوم هزيمة الامبراطورية فى منزيكرت من أسود أيام تاريخ بيزنطة الطويل^(٧) .

غير أن تلبية مثل هذه الاستغاثة البيزنطية فى هذه الآونة بالذات لم يكن ممكناً بسبب الظروف الدولية التى لم تكن مواتمة لمثل هذه الحركة . فلم يكن الغرب ذو الفكر الاقطاعى سياسياً واجتماعياً فى ظروف تسمح له بتنظيم حملة عسكرية كبيرة^(٨) ، فضلاً عن أن ظروف منطقة شرق البحر المتوسط لم تكن لتخلق الأرض الخصبة التى يمكن أن يشمر فيها مثل هذا المشروع الغربى الحربى ثماراً طيبة . فقد كانت الامبراطورية السلجوقية فى أوج قوتها ووحدتها بل وكانت فى توسع مستمر ودليلنا على ذلك سقوط منطقة شرق البحر المتوسط وآسيا الصغرى فى أيدي الأتراك السلاجقة أولئك المسلمون المتعصبون الذين اعتنقوا المذهب السنى وأفادوا الاسلام بإفادات جمة وظل الأمر كذلك حتى عصر السلطان ملكشاه السلجوقى ووزيره نظام الملك ذو العبقرية الفذة الذى استطاع أن يضع نظاماً سياسياً دقيقاً ورائعاً لهذه الدولة المترامية الأطراف فى كتابه المشهور الذى ألفه بالفارسية تحت عنوان « سياسة نامه » أى كتاب الحكم أو السياسة والذى فيه يجد الباحث أعظم

ما تركه الفكر الانساني للسياسى فى هذا العصر لكيفية لإدارة وحكم امبراطورية عظمى مثل الامبراطورية السلجوقية (٩) . وطالما ظلت تلك الامبراطورية محافظة على وحدتها وقوتها ظلت الرهبة من مجرد تفكير أعدائها فى غزوها ملازمة لهؤلاء الأعداء وهذا هو التفسير الأمثل لانتظار الغرب المسيحى مدة تربو على العشرين عاماً قبل أن يرد إيجابياً على استغاثة الامبراطور البيزنطى التى عبر عنها عام ١٠٧١ م . إذ أن السلطان السلجوقى ملك شاه الذى ظل بشخصيته محافظاً على وحدة وقوة الامبراطورية قد توفى عام ١٠٩٢ وحدث ما ينبغى أن يأسف عليه كل مسلم وهو الانقسام الذى دب بين أفراد البيت السلجوقى وسرعان ما نشبت الحرب بين بركياروق ابن ووريت ملكشاه وعمه تنش الذى لم يشأ الاعتراف بسلطنة ابن أخيه ، وانتهى الأمر بهزيمة عند الرى . غير أن الذى يهمنى هنا هو أن الخلاف الذى دب بين أفراد البيت السلجوقى كان بداية تفكك الامبراطورية الفتىة السلجوقية فزحف الوهن إلى أعضائها والضعف إلى جيوشها والانهيال التدرجى إلى حضارتها (١٠) .

كان ذلك بمثابة النور الأخضر الذى سمح للحركة الصليبية أن تولد وتبرز إلى الوجود التاريخى رغم أن دوافعاً أخرى فى الغرب - وبالذات فى أسبانيا - ساعدت على بروز هذه الظاهرة التاريخية . ولذلك نحن نعتقد أن الحروب الصليبية كانت وليدة حركة التاريخ العالمى ولم تكن نتيجة لرغبة أو دعوة ، بل إن ظروفها دولية متشابهة مهدت الظروف أمام ظهور هذه الظاهرة التاريخية التى طالما أثارت ومازالت تثير فكر البشر والباحثين ألا وهى ظاهرة الحروب الصليبية .

نقصد من ذلك ، القول بأن البابوية والكنيسة كانت حقاً تعمل ولكن فى داخل إطار الحركة التاريخية العالمية المحيطة بها والتى ما كان باستطاعتها أن

تجرك بمعزل عنها ، وهى فى هذه السبيل عرفت حق المعرفة كيفية التوثيق
السليم للقيام بالتبشير لحركتها الصليبية فكان لابد من أن تبدأ تلك الحركة فى
وقت تكون فيه الظروف الأوربية مواتية لذلك ، كما كان لابد أيضاً من أن
تكون الأحوال فى الشرق الإسلامى مهيأة للطريق الذى سوف تسلكه
الجيوش الصليبية . وقد نجحت البابوية فى اختيار هذا الوقت المناسب
خصوصاً بعد التفتت الذى طرأ على وحدة الامبراطورية السلجوقية الإسلامية
فى أعقاب وفاة السلطان ملكشاه مثلما ذكرنا آنفاً ، وكذلك بعد الضعف
الذى أصاب الخلافة الفاطمية فى مصر . وكان على البابوية أن تعمل على
استغلال الظروف الدينية والاجتماعية والاقتصادية التى تحمكت فى أوروبا
عشية الحملة الصليبية الأولى وهى فى ذلك كانت تتمتع بنفوذ دينى واسع
النطاق على جماهير الشعوب الأوربية وإلى جانب نفوذ الكنيسة الكاثوليكية
الدينى كانت توحده القدرة الاقتصادية الضخمة التى استطاعت الكنيسة
تجميعها وتوجيهها لخدمة أهدافها^(١٢) . وفى الحق لقد وجدت الكنيسة أمامها
أرضاً مهيأة لتقدم دعوتها فى أوروبا ، فالظروف الاقتصادية - الاجتماعية
التي كانت تتحكم فى أوروبا عشية الحملة الصليبية الأولى جعلت المجتمع الأوربي
فى « حالة انتظار » لمثل هذه الدعوة ، فرى أن البابا إربان الثانى حينئذ عاد إلى
الحملة الصليبية الأولى فى مدينة كليرمون فيران Clermont Ferrand
بفرنسا عند افتتاحه للمجمع الكنسى يوم ١٨ نوفمبر سنة ١٠٩٥^(١٣) ، يستغل
إلى أبعد مدى الصعوبات الاجتماعية - الاقتصادية التى كانت تنبثق تحت
وطأتها الجماهير المسيحية . ألم تكن تبحث عامة الشعب فى القارة القديمة
(أوروبا) عن السبيل الذى يمكن أن تسلكه لتحرير نفسها من تلك الصعوبات؟
ألم تجد تلك الجماهير فى دعوة البابا فرصة مواتية كي « تضرب فيها عصافير
بحجر واحد » ، فترضى معتقداتها الدينية من ناحية وتجيّب رغباتها من أجل
تحسين أحوال معيشتها من ناحية أخرى ؟ . فى الواقع لقد كان لدعوة البابا
فى مثل هذه الظروف صدى قوى وعميق اتخذ صورة الحماس الدينى للجماهير

الذى لم يكن فى رأينا سوى ملجأ آوت إليه هذه الجماهير الباحثة عما يريدها من صعوباتها الاجتماعية — الاقتصادية بل العسكرية كذلك حتى ولو كان ذلك معنوياً فى صورة حماس دينى . لقد كان لدعوة البابا حقاً أثر عميق فى إثارة الرغبة الدفينة لدى الجماهير المسيحية للذهاب إلى الأراضى المقدسة ورؤية قبر السيد المسيح وذلك مما كانت تسمعه هذه الجماهير من الروايات التى كان يرويها عن الأراضى المقدسة الحجاج الأوربيون الذين كانوا فى إزدباد مطرد والذين أحاطوا رواياتهم بكثير من المبالغة التى كادت تقرب من حد الأساطير^(١٤) . وبذلك اعتقدت الجماهير الأوربية أن فى ذهابها فى الحملة الصليبية الأولى خلاص لها من صعوباتها الاجتماعية — الاقتصادية فى ذلك خروج لها من حالة العبودية إلى حالة الحرية الإنسانية وترقية لأحوالها الاقتصادية بالتالى ، كما اعتقدت أيضاً أن بعملها هذا كانت تسلك السبيل الذى يمنحها رضا الرب .

وإذا كانت البابوية قد استنفرت الجماهير الأوربية المسيحية من أجل القيام بالحملة الصليبية الأولى على أساس أن تلك الجماهير لم تكن فى الواقع سوى الوقود الذى منه كانت تتغذى نار الحرب الصليبية اشتعالاً ، فلم تكن (البابوية) لتغفل عن طبقة النبلاء والسادة الأوربيين الإقطاعيين الذين كانوا يربون ببصرهم نحو أمل طالما داعب أفتدثهم وتراعى أمام خيالاتهم . فالمعلوم أن النظام الإقطاعى الأوروبى لم يكن يعطى الحق فى حمل لقب « كنت » ، Comte ، سوى للإبن الأكبر بعد وفاة والده وبذلك كان بقية النبلاء محرومين من حمل مثل ذلك اللقب ، وعلى ذلك لاغرابة إذا كانت هذه الطائفة من النبلاء تحاول البحث عن أماكن أخرى من العالم حيث يستطيعون تأسيس كوثنيات أو إمارات لكل منهم ، وكانت البابوية تعرف هذه الحقيقة فشجعت هؤلاء النبلاء « المتعطشين للحصول على أراضى جديدة لهم »^(١٥) ، على الاشتراك فى الحملة الصليبية على أمل أن ذلك سيجقق مطالبهم فوعدهم بالعود

التي تتناسب ورغباتهم تلك . وبذلك نرى أن البابوية — وهي في سبيل
حشد الطاقات البشرية اللازمة للحملة الصليبية — كانت تلعب على وتر
الحساس الذي يؤثر في كلتا الطائفتين اللتين كانتا تكونان المجتمع الأوربي .
فحاطبت الجماهير الشعبية بلغة تتلاءم مع أحوالها النفسية والاجتماعية والاقتصادية
والدينية . وكذلك نراها تناجى طبقة النبلاء الإقطاعيين بلسان يلهث برغباتها
وأطماعها . ولذلك نحن نرى أن الحملة الصليبية الأولى كانت الوسيلة الواحدة
التي جمعت بين مصالح هاتين الطبقتين المتضادتين مع ما في ذلك من غرابة
الجمع بين الضدين !!! . ففي الحق لقد كان لأولئك وهؤلاء أهداف متباينة
يطمحون في تحقيقها من وراء القيام بالحملة الصليبية . وبذلك نرى — ويرى
معنا كل صاحب فكر خصيب يبحث في ظاهرة الحروب الصليبية — أن
الحملة الصليبية كان لها ظاهر ديني يخفي وراءه خلفية منسوجة سدى ولحمة
بخيوط من الصعوبات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي كانت غارقة
فيها أوروبا عشية الحملة الصليبية الأولى .

وإذا كانت البابوية قد اهتمت إلى اللغتين اللتين بهما استطاعت التأثير في
تلك الطبقتين من المجتمع الأوربي فإن استخدام وممارسة هاتين اللغتين كان
يتم بواسطة أناس توفرت فيهم قوة التأثير فعفرُوا براعة اللعب على وتر
الحساس لكل من الطبقتين فجعلوه يهتز حماسه وحمية ورغبة أكيدة في تنفيذ
المشروع البابوي ، بل لعل الأهم من ذلك أن هؤلاء الذين استخدمتهم
الكنيسة الكاثوليكية اهتموا بنقطة على درجة بالغة من الأهمية ألا وهي
توكيد إيمان هاتين الطبقتين بمشروعية القيام بتنفيذ مشروع الحملة الصليبية .
ونقطة الإيمان هذه في الواقع تمثل بالنسبة لنا نصف النجاح في تنفيذ هذا
المشروع . وسوف نرى أنه كان لابد من أن يقابل هذا الإيمان المسيحي
الغربي بإيمان مضاد إسلامي .

وفي الحق لقد اهتمت الكنيسة بتجنيد رجال الدين المسيحيين من أجل

الدعوة الشعبية لهذا المشروع الصليبي فلعبوا بذلك الدور الاساسى الذى كان لابد منه لتجميع القوة البشرية والمادية اللازمة للحملة الصليبية . ولا يخفى علينا أن استخدام رجال الدين فى الدعوة للحملة الصليبية كان أمراً طبيعياً خصوصاً إذا ما أريد مخاطبة شعوب خاضعة خضوعاً كاملاً لتسلط فكرة الحماس الدينى ، تلك الفكرة التى سيطرت على هذه الشعوب خصوصاً بعد الحركة الإصلاحية التى حدثت فى القرن الحادى عشر بـ كلونى Cluny^(١٦) ومنها امتدت إلى كل المسيحيين فى القرن الثانى عشر . مثل هذه الشعوب التى كانت مشغولة بروح الحماس للدين ومفعمة برغبة التشفد الدينى كان لابد من مخاطبتها بلغة الإيمان والدين ؛ ومن أحسن رجال الدين حديثاً فى الإيمان ؟ ومن أفضل منهم أو أكثر منهم فصاحة أو مهارة فى استغلال نقطة الضعف هذه لدى المؤمنين المسيحيين ذوى الحساسية الخاصة فيما يتعلق بالحديث عن الإيمان ؟ وترتبط على ذلك حشدت الكنيسة قساوسة ورهباناً وعهدت إليهم بمهمة تحريك الهمم وإيقاظ الرغبة بين المسيحيين على اختلاف نزعاتهم من أجل خدمة قضية " تحرير أو تخليص قبر السيد المسيح والأرض المقدسة من براثن الكفر الاسلامى ، على حد تعبيرهم . هكذا كانوا يتحدثون . وهكذا كانوا يؤمنون ، وقد كان هؤلاء القساوسة والرهبان يلقون بكل ثقلهم وهيبهم الدينية ويمارسون ضغطاً سيكولوجياً عنيفاً من أجل تعبئة جماهير المسيحية للانخراط فى صفوف الحملة الصليبية . وكان طبيعياً أن يتخذ هؤلاء القساوسة من الخطاب الذى ألقاه البابا إربان الثانى فى كليرمون دليلاً لهم ونبراساً يهتدون به . وعلى الرغم من أن التاريخ لم يحتفظ لنا بالنص الرسمى الكامل لخطاب البابا إلا أننا نستطيع تكوين فكرة عامة عن أهم الأفكار التى تضمنها ذلك الخطاب من واقع ما أورده لنا فوشيه دى شارترز Foucher de Chartres الذى كان حاضر الجلسات المجمع الكنسى اختتم جلساته يوم ٢٧ نوفمبر سنة ١٠٩٥ م فى مدينة كليرمون وبالتالى

استمع بالتأكيد لخطاب إربان الثانى الذى ألقاه فى أعقاب هذا المجمع ، وكذلك لما احتفظ لنا به بودرى دى دول Boudri de Dol . فقد اهتم البابا فى خطابه الذى وجهه لجمهير الشعوب المسيحية بنقطة نعتبرها من أهم نقاط الخطاب ألا وهى : بحث كل فرد على أن يعيش وفق القانون الإلهى . فسير فى حياته مستمسكا بالقواعد الكنسية حتى يحقق ما يسمى بالهدنة مع الرب . . ولكن البابا يستطرد قائلا : ولكن إلى جانب تحقيق ذلك عليكم القيام بعمل خيرى آخر وهو الذهاب لإغاثة إخوانكم الذين يعيشون فى الشرق . . . فقد هاجمهم الأتراك والعرب . . ودمرت الكنائس كما خربت الأماكن المقدسة (المسيحية) . . من أجل ذلك أتوسل إليكم ليس باسمى أنا ولكن باسم الرب أن تجندوا الفرنج على اختلاف طبقاتهم ، مشاة وفرسانا ، فقراء وأغنياء من أجل إنقاذ عبيد المسيح وطرود الجنس الرنديق ، (١٧) . غير أن البابا لم يكن ليكتفى بذلك فنراه يضيف دافعا آخر يبرر القيام بالحملة الصليبية وهو أن هذه الحملة سوف تكون بمثابة الملجأ الذى يلجأ إليه المتحاربون المسيحيون الذين طالما دخلوا فى حروب أهلية فيما بينهم مريقين بذلك دمائهم ، فبخروجهم فى الحملة الصليبية تحقيق للسلام بالنسبة للمسيحية ذاتها فى أوروبا وحقنا لدماء المسيحيين . ١١ فيذكر بودرى دى دول أن البابا قال للمسيحيين فى خطابه : إنكم تمزقون بعضكم بعضا ، وتعتدون على الأيتام ، وتغتصبون الأراامل ، إنكم ترتكبون المذابح الفظيعة (ضد بعضكم البعض) وتدنسون المقدسات . . . امتنعوا عن قتل إخوانكم ، ووجهوا ذلك نحو أمم أجنبية وحاربوا بدلا من ذلك من أجل القدس 'صرة العالم' . وفى نص آخر أورده لنا راهب اسمه رويير لاموان Robert le Moine نرى الدافع الاقتصادى يبرز من بين ثنايا خطاب البابا الذى قال : إن الفقر ومصادر الطعام المحدودة كانت السبب الاساسى

الأساسى فى قيام الحروب الأهلية المتكررة فى الغرب (المسيحى) ، أى أنه بقصد القول إن الغربيين بخروجهم فى الحملة الصليبية أو بمعنى آخر بإبعاد أعداد لا بأس بها من الأفواه الجائعة عن أوروبا الغربية سوف يحل مشكلة الطعام أو على الأقل يضعف من حدتها ، وذلك عن طريق حصولهم على أراض جديدة من جهة ، وتقليل عدد الذين يعيشون فى صعوبات أوروبا الغربية فتقل بذلك مشاكلهم . وبذلك استطاع البابا أن يمزج بين الدافع الدينى والدوافع الاقتصادية والاجتماعية بل والعسكرية كذلك من أجل حشد الطاقات البشرية والمادية اللازمة لتكوين الحملة الصليبية ، وكان لابد من أن تثير فكرة تخلص بيت المقدس وقبر السيد المسيح حمية المسيحيين فى هذه المدينة المقدسة عاش « المنقذ » (المسيح) فيها « صلب ومات » ، كان لابد على البابا ورجال الدين من إقناع الجماهير « بعدالة ومشروعية » الحملة الصليبية . كان على الجماهير أن تؤمن بأن الاندراج فى الحملة الصليبية ماهو إلا « القيام بالحرب من أجل الرب . . . » إن الذين يقومون بها سيكونون بمثابة أمة اختارها الله ، وعدم البابا بالغفران وبالأجناد السماوية لهؤلاء الحجاج المسلحين ودرجة الشهداء لهؤلاء المحاربين التواابين (١٨) .

كان لابد من أن يترتب على مثل هذا الخطاب إثارة حماسة الحاضرين لدرجة لم يشهد لها مثيلاً فهناك الكثيرون الذين بكوا وهناك الذين أشاع فيهم هذا الخطاب شعوراً غريباً بالفرح لدرجة أن روبرت لوموان Robert le Moine قال إن الخطاب البابوى قد قوطع بصرخة مدوية من جمهور الحاضرين قالت « هكذا يريد الله » ، Deus lo volt ، وكانت عبارة استغلها البابا على الفور بمهارة فائقة كى يثبت فى أفتدة الفرنج الإيمان والاعتقاد بأن القيام بالحملة الصليبية ما هو إلا تنفيذاً لإرادة الإله حقاً .

وطلب البابا من أولئك الذين يرغبون في التطوع مع الحملة الصليبية أن يحكوا على قصانهم قطعة من النسيج على شكل الصليب رمزاً لتطوعهم ، يحكونها على الكتف الأيمن أو بين الكتفين . وبذلك بدأت تتكون الحملة الصليبية الأولى وضع بذورها الأولى البابا إربان الثاني وتعمد هذه البذور بالرعاية رجال الدين الذين سرعان ما انتشروا بين جماهير وسادة أوروبا متأسين بطريقة البابا في إلهاب حماس تلك الجماهير وفي مخاطبة طبقاتهم بلغة تتناسب وظروفهم . وسوف نتناول هذا الموضوع في مقال مقبل بإذن الله .

المراجع

SALAH ELBEHEIRY, L' Armée Ayyûbide, انظر (١)
Publications de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire.

Salah Elbeheiry, Les Lettres d'an-Nâsir Dâûd, انظر (٢)
Communication faite au XXVII^e Congrès International des Orientalistes, Ann Arbor, Michigan août 1969, publié dans ARABICA, T. XV, fasc. 2, 1968 et Proceedings of the 27th International Congress of Orientalists, Wiesbaden 1971.

Salah Elbeheiry, Les Institutions de l'Egypte au أيضاً وانظر
temps des Ayyûbides, Thèse Principale de Doctorat d'Etat soutenue en Sorbonne 1971 et publiée par l'université de Lille III, 1972; Kitab Al Fawâid al-Jaliyya. Institut français de Damas.

Salah Elbeheiry, Le Décret de nomination de أيضاً وانظر
l'historien Ibn wasil au poste du professeur de le mosquée al-Aqmar, Communication faite au XXIX^e Congrès International des Orientalistes, Paris 1973, in Bulletin de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, Le Caire 1973.

cf Paul Rousset Histoire des Croisades Paris 1957 (٣)

cf. Jean Ebersolt, Orient et Occident, P. 51, Paris 1954.(٤)

(٥) عن موقعة منزيكرت انظر .

cf. Georges Ostrogorsky, Geschichte des Byzantinischen Staates
Histoire de l'Etat Byzantin p. 366 Paris 1956. والترجمة الفرنسية

Cl. Cahen, Pre-Ottoman Turkey: p. 29, London 1978;

Hélène Ahrweiler, Byzance et la mer, P. 139, Paris 1966;

A. A. Vasiliev, History of the Byzantine Empire, Vol. I, 35g;

ed Madison and Milwaukee, The University of Wisconsin
press U.S.A. 1964;

Faruk Sümer, OGUZLAR (Türkmenler), p. p. 100 - 101
Ankara, 1967

وانظر أيضاً المرجع التركي الهام

The shorter Cambridge Medieval History, Vol. I, pp. 278-279;
History of the Crusades, Vol. I, pp. 143—149, ed. by Setton
Philadelphia 1958; Claude CAHEN La Syrie du Nord à l'époque des
Croisades, p. 182 et 199, Paris 1940.

Steven Runciman, La Civilisation Byzantine, p. 53, انظر (٦)
trad française, Paris 1952; René Grousset, Histoire des Croisades,
Vol. I, pp. XXX-XXXIII. Paris 1934.

The History of the Byzantine Empire : an outline, انظر (٧)
p. 28 in Byzantium : An introduction to East Roman Civilization
edited by Norman H. Baynes and L. B. Moss, Oxford 1962.

(٨) عن أحوال أوروبا الاقطاعيين انظر

Henri Pirenne, A History of Europe 2 Vol New York, 1958;
et son livre sur "Les Grands Courants de l'Histoire
Universelle" 7 Vol.

ولخصها ابنه جاك في كتابه بانوراما على اتاريخ العالمى

Jacques-Henri Pirenne, Panorama de l'histoire universelle,
Paris 1963;

Marc Bloch, La Société féodale, Paris 1939-1948 (Traduit
en anglais éd. Chicago 1961:

Robert Boutruche, Seigneurie et Féodalité, Paris 1959; Carl
Stephenson. Medieval Feudalism, Cornell, U. S. A, 1965; Ch Ed.
Perrin, La société Féodale allemande et ses institutions du x^e au
XII^e siècle, C. D. U. Paris (Sorbonne) et son "seigneurie rurale
en France et en Allemagne du début du IX^e à la fin du XII^e
siècle, C. D. U. Paris (Cours de la Sorbonne).

cf. Nizâm al-Mulk, Siyaset—Nâme, éd. Charles Schefer, Paris 1893.
(٩) انظر

وهذا الكتاب مترجم أيضاً إلى الانجليزية انظر :

Hubert Darke. The Book of Government, ed London 1965

- (١٠) انظر الراوندى : راحة الصدور وآية السرور في تاريخ الدولة السلجوقية .
 ترجمة عن الفارسية لإبراهيم الشواربي وآخرين . الناهرة سنة ١٩٦٩ .
 وعن الأتراك السلاجقة انظر المرحم الذى كتبه المؤرخ التركى المعاصر فاروق سومر .

cf. Prof. Dr. Faruk SUMER, OGUZLAR (Turkmenler), Ankara Universitesi Basimevi 1967., Claude CAHEN, Pre — Ottoman Turkey op. cit et son article sur la première pénétration turque en Asie Mineure, Byzantion, t. XVIII, 1943

وكذلك المقال الذى كتبه المؤرخ السوفيتى المعاصر حسينوف عن الجيش السلجوقى .

cf. Husseynov (R. A.), L'organisation de l'armée Saljukide, (en russe) in Recueil Palestinien, Sbornik. éd Naouka "Science" Leningrad, 1967.

والكتاب الذى كتبه المؤرخ الأرمنى الأصل باسدر ماجيان الأستاذ الحالى بجامعة جينيف عن تاريخ أرمينية فقيه بضم صفحات هامة عن تاريخ السلاجقة وعلاقتهم بالأرض
 انظر :

H. Pasdermadjian Histoire de l' Arménie, 2ème éd. pp. 236—240, Paris 1864.

Minorsky (V.) A civil and military review in Fars BSOS, vol. X, Part. 1, 1h39:

Nikita Elisséeff, Nur ad — Din, 3 vol. publié par l'Institut Français de Damas, 1967: René Grousset, Histoire des Croisades, op. cit, vol 1, pp. XXV—XXXIX.

(١١) انظر :

Paul Alphandéry, La Chrétienté et 'l' idée de croisade vol. I, pp. 16 -- 17 et 26 — 27, éd. Paris 1954; E. Perroy (et autres), Le Moyen Age, op. cit, pp. 267—272.

« Reconquista et croisade » حيث يوجد فصل شيق بعنوان

H. Lietzmann, Histoire de l'Eglise Ancienne, : انظر (١٢)
 4 vol., Paris 1949, 50,61,

cf. E. Perroy (et autres), Le Moyen Age, in Histoire générale des civilisations, vol. III, P. U. F. Paris 1961.:

(Michel) Villey, La Croisade, Essai sur la formation d'une théorie juridique, Paris 1932

(١٣) انظر :

cf. Paul Alphandéry, La chrétienté et l'idée de Croisade, op cit. vol. I, pp. 31—33.

(١٤) انظر :

cf. Paul Rousset, Histoire des Croisades, p. 43; éd. Payot, Paris. 1957, Ostrogorsky, Histoire de l'Etat Byzantin, p.382^e op. cit.

وانظر بعين الاهتمام الى الفصل الذى كتبه پول الفاندى فى كتابه سالف الذكر (حاشية ٢) عن الحجاج والحملات الصليبية .

Paul Alphandéry. La Chrétienté et l'idée de Croisade, op. cit, vol. I. pp. 9—42.

(١٥) انظر :

Ostrogorsky, Histoire de l'Etat Byzantin, op. cit, p 382.

وعن المجتمع الاقطاعى انظر المراجع التى سبق ذكرها عن هذا الموضوع فى حواشينا السابقة .

L. Perroy, Le Moyen Age; op. cit, p 234 sq.

(١٦) عن إنشاء دير كلونى سنة ٧١٠ م انظر :

E. Perroy, Le Moyen Age, op. cit. pp 149—150.

ولقد نشأت فى هذا الدير حركة إصلاحية سرعان ما انتشرت بين المسيحيين أجمعين فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر وذلك أن رجال الدين فى دير كلونى كانوا يعيشون فى مستوى الإقطاعيين بحيث أصبح هناك ما سمي فى التاريخ برجال الدين الارستقراطيين مما جعلهم هدفاً لكثير من النقد والتجريح وتساءل الكثيرون المعاصرون لهم عن أحقية رجال الدين فى العيش كإقطاعيين أرستقراطيين سكاناً وملبساً ومعاشاً . وبذلك ظهر فى القرن الحادى عشر تيار جديد يهدف إلى إحداث اصلاح دينى أعمق من الإصلاح المعروف الذى أجراه البابا جرجوار السابع (١٠٧٣ — ١٠٨٥ م) فكانت الحركة الإصلاحية المعروفة باسم الحركة الكلاونية . انظر المرجع المذكور فى رأس هذه الحاشية ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

(١٧) انظر :

Paul Rousset, Histoire des Croisades, op. cit, p. 41.

(١٨) انظر :

Paul Rousset, Histoire des Croisades, op 42.